بِسـمِ اللّـهِ الرّحمـنِ الرّحِيـمِ

لغتنا والقـرآن

حضيت اللغة العربية بتشريفٍ وإعلاءٍ لم تحضَ به أية لغةٍ في العالم بسبب ارتباطها بالقرآن الكريم ، وممّا يُرادُ بيانُهُ هنا منشأُ هذا الارتباط والأسس التي قام عليها.

إذ اللغة كما قال ابن جني:"أصواتٌ يعبّرُ بها كلّ قومٍ عن أغراضهم"(الخصائص :١/ ٣٤) فهي وعاء الفكر والعواطف مغاريفها الأصوات والألفاظ، ولغتنا العربية لغةٌ واعيةٌ مستوعبةٌ لشتى أنواع الفكر معبّرةٌ بأحسن الألفاظ عن دقيق الأغراض وأرقّ العواطف، غير أنّها لم تكن في عهدها الأول قبل مجيء الإسلام قد توسعت الى المدى الذي وفّره لها ارتباطها بالقرآن الكريم؛ كون العرب في شبه الجزيرة العربية آنذاك لم يكونوا قد خرجوا عن حدود موطنهم في حروبهم ولم يكونوا اهل علم تقصده الأمم الأخرى لتتعلمه بلغتهم العربية ، فكانت هذه الفاتنة البليغة جوهرتهم النفيسة المخبّأة في حنايا صدورهم الحبيسة لاستعمالاتهم وإن كانت مدعاة فخرهم وسبب عزهم لامتلاكهم سنام البلاغة والفصاحة فيها.ولمّا خصّ الله تعالى هذه الأمة بنعمة الإسلام اصطفى لغتها لتكون لغة رسالته السمحاء ،قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف:٢).

وقد حمّل –سبحانه وتعالى–هذه الرسالة رجلاً من العرب ؛ليكون رسوله إليهم(صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم) ، فقال جلّ ثناؤه:

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء: ١٩٢–١٩٥) .وبذلك كان الارتباط الدائم بين اللغة العربية والقرآن الكريم فهذا الكتاب المعجز جاء بلغة العرب اصواتاً وألفاظاً ومعاني، فأعجب أهل هذه اللغة وأعجزهم ،قال السكاكي: " وللّه درّ التنزيل ،لايتأمل العالم آية من آياته إلا أدرك لطائف لاتسع الحصر "(مفتاح العلوم:٥٢٧) ،فانطلقت لغتنا الى العالمية والخلود بحكم ارتباطها التلازمي به، لقوله عزّ من قائلٍ:

ﭐﱡﭐوَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَﱠ (سبأ: ٢٨) ، وفي هذا يقول الثعالبي:"من أحب الله حبّ رسوله المصطفى صلّى الله عليه وسلّم، ومن أحبّ النبي العربي أحبَّ العربَ ، ومن أحبّ العرب أحبّ اللغة العربية التي بها نزل أفضل الكتب على افضل العجم والعرب" (فقه اللغة وأسرار العربية:٢٩)،فكانت ميزة جديدة للغة العربية مضافة الى ما تتمتع به من سمات خاصة فاقت بها سائر اللغات، قال ابن خلدون:" وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحق الملكات وأوضحها بياناً عن المقاصد" (مقدمة ابن خلدون:٥٤٣/١)،وهي "أفضل اللغات و أوسعها ... فلمّا خصّ جلّ ثناؤه اللسان العربي بالبيان عُلم أنّ سائر اللغات قاصرةٌ عنه وواقعة دونه"(الصاحبي :١٢). والقرآن الكريم "جاء بها في ماء الجمال أملأ من السحاب ، وفي طراءة الخلق أجمل من الشباب ، ثم هو بما تناول بها من المعاني الدقيقة التي ابرزها في جلال الإعجاز ، وصورها بالحقيقة وأنطقها بالمجاز ، وما ركبها به من المطاوعة في تقلب الأساليب ، وتحويل التركيب الى التراكيب فقد أظهرها مظهراً لا يقضى العجب منه؛ لأنه جلاّها على التاريخ كلّه لا على جيل العرب بخاصته" (تاريخ آداب العرب:٧٤/٢)، وهاهي تفتخر بهذا العزّ الخالد على لسان الشاعر حافظ إبراهيم:

وسِعتُ كتابَ اللهِ لفظاً وغايةً   وما ضِقتُ عن آيٍّ بهِ وعظاتِ

(ديوانه:٢٥٣)

وبهذا فاللغة العربية لاتموت بل هي لغة المستقبل ، يذكر محمد الخضر حسين أن (جول فرن) كتب قصة خياليةً عن سياح يخترقون الكرة الأرضية حتى يصلوا أو يدنوا من وسطها ، و بدا لهم أن يتركوا أثراً يدلّ على مبلغ رحلتهم فنقشوا على الصخر كتابةً باللغة العربية ،" ولمّا سُئِل جول فرن عن وجه اختياره اللغة العربية ،قال إنّها لغة القرآن، ولاشك أنّه يموت غيرها، وتبقى حيّة حتى يرفع القرآن نفسه" (دراسات في العربية وتاريخها:١٤).

و اليوم تغزو الالفاظ الأعجمية ألسنة أبناء هذه اللغة، ومن شؤم الحال أن نجد منهم من يستمرئ ذلك بحكم استعمالهم للتكنلوجيا التي تصوّر لهم قصور لغتهم عن مقاصدها ،والحقّ ما قدمنا من كونها أوسع اللغات وأكثرها تصرفاً في الأصوات والألفاظ والتراكيب ،ومن سوء

حـال المـرء أن ينكـر ذلـك فيحجـر علـى هـذه اللغـة المتفـردة فـي شخصـيتها وثرائهـا . وليس لمن أراد للغة القرآن أن تبقى لساناً ناطقاً على الزمان إلاّ أن يلتزمها لغةً للتواصل ولاسيما معلمو اللغة العربية ومدرسوها وان يعودوا طلبتهم استعمالها فلا تكون اللفظة الفصيحة بعد ذلك غريبة صعبة تُنطق بلسان التكلّف فتظهر جافة بلا حياة، ولتحقيق الألفة بين اللغة وأبنائها لابدّ من التمسّك بما يكتنز به تراثنا اللغوي ننهل منه الفاظاً وتراكيب ومعاني وأساليب لنقدم ما من شأنه أن يكون نافعاً في عالم العلم والعمل بلغتنا الفصيحة وفاءً لعروبتنا وإسلامنا.

المصـــادر :

- القــرآن الكـــريم
- تاريخ أداب العرب: للرافعي، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٤م.
- الخصائص: لأبي الفتح عثمان بن جني،تحقيق: محمد علي النجار،ط٤ ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد،١٩٩٠م.
- دراسات في العربية وتاريخها: لمحمد الخضر حسين،ط٢، المكتب الإسلامي، مكتبة دار الفتح ، دمشق ، ١٣٨٠هـ-١٩٦٠م.
- ديوان حافظ إبراهيم،ضبطه وصحّحه وشرحه ورتبه:أحمد أمين،أحمد الزين، إبراهيم الأبياري،ط٣،الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م.
- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها: لأحمد بن فارس،القاهرة ،١٩١٠م.
- مفتاح العلوم:لأبي يعقوب يوسف بن محمد السكاكي(٦٢٦)هـ،تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي،ط٢، دار الكتب العلمية،لبنان،٢٠١١م.
- مقدمة ابن خلدون: لعبد الرحمن بن خلدون، دار احياء التراث العربي،بيروت،د.ت.
- فقه اللغة وأسرار العربية :لأبي منصور الثعالبي(٤٣٠)هـ،ضبطه وعلّق حواشيه:د.ياسين الأيوبي،ط٢،المكتبة العصرية،صيدا-بيروت،١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.